

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي
جامعة واسط / كلية التربية

التقديم الدولي لليونسكو ١٩٩٤ - ٢٠١٧



مجلة كلية التربية

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الخامس لكلية التربية جامعة واسط

المنعقد تحت شعار :

بأقلام باحثينا نصنع الحياة

١٣ - ١٤ نيسان ٢٠١٢

رقم الايداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٩٦١ لسنة ٢٠٠٧



٢٠١٢
١٤
١٤١٤

وزارة التعليم العالي والبحث العلمي

جامعة واسط / كلية التربية

مجلة كلية التربية

الترقيم الدولي لليونسكو ١٩٩٤-٢١٧٤

عدد خاص بأبحاث المؤتمر العلمي الخامس لكلية التربية جامعة
واسط

١٣ - ١٤ نيسان ٢٠١٢

المنعقد تحت شعار

بأقلام باحثينا نمنع الحياة ١٣ - ١٤ نيسان ٢٠١٢

رقم الإيداع في دار الكتب والوثائق ببغداد ٩٦١ لسنة

٢٠٠٧

محتويات المؤتمر الخامس كلية التربية للعلوم الانسانية

الصفحة	عنوان البحث	ت
المحور الاول : اللغة العربية (١١- ٣٣٩)		
1-11	وساطة الشعر في الفصحى والمصنفات القصيدة الجاهلية مثالا أ.د. كاظم جند محرز / جامعة واسط / كلية التربية	١
12-27	اللغة العربية بين شبه الجزيرة العربية واللغة الانكليزية أ.د. ولاء صادق محسن / جامعة بغداد / كلية التربية للبنات	٢
28-48	النحو الصوفي (نحو الإشارة أو نحو القلوب) أ.د. حسن منديل حسن المكيئي / جامعة بغداد / كلية التربية للبنات	3
49-76	السطحية والغورية في مقدمات قصائد الأخطل المدحية أ.م.د. جميل بدوي حمد الزهيري / جامعة واسط / كلية التربية / قسم اللغة العربية	4
77-101	أثر المكان في فهم الجملة عند سيبويه أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي / كلية العلوم الإسلامية / جامعة كربلاء	5
102-116	قراءة صرفية في جنود الأفعال الثلاثية والرابعة أ.م.د. خديجة زيار الحمداني / جامعة بغداد / كلية التربية للبنات	6
117-142	قراءة دلالية لقصيدة الأنبياء في النسخ القرآني النبي موسى (عليه السلام) اثولوجيا أ.م.د. سريون عبد الزهرة الجندبي / جامعة الكوفة / كلية الفقه	7
143- 154	مشكل الريادة في مدرسة البصرة النحوية أ.م.د. غادة غازي عبد الحميد / جامعة ديالى / كلية التربية للعلوم الانسانية	8
155-184	الحصائص الفنية في ديوان الحاج جواد بدقت الأسدي (ت ١٢٨٦هـ) أ.م.د. منذر إبراهيم حسين الحليسي / أ.م.د. محمد حسين عبد الله المهداوي / م. أحمد صبيح محسن الكعبي جامعة كربلاء - كلية التربية - قسم اللغة العربية	9
185-229	أثر السياق في فهم وتحليل معاني (قضى) واشتقاقاته في القرآن الكريم م.د. محمود حمود عزالث القرشي / جامعة واسط / كلية التربية	10
230-242	الفكر الجبري بين المتكلمين والفلاسفة د. حيدر تقي العلق / جامعة واسط / قسم علوم القرآن	11
243-268	الحصائص الأسلوبية في خطبة السيدة الزهراء (ع) د. طلال خليفة سلمان / جامعة بغداد / كلية التربية للبنات	12
269-281	جدلية الوجود الإنساني قراءة في نونية المتنبي صحب الناس قبلنا ذا الزمانا وعناهم في شأنه ما عشنا د. علي عز الدين الحظيبي / جامعة واسط / كلية التربية الاساسية	13
282-303	ملامح النهضة البصرية القديمة د. رافع مطهر السعيدان / م. د. علي محسن بدلي / جامعة ذي قار / كلية التربية / قسم اللغة العربية	14

كلمة الهيئة التحضيرية

في غمرة أفراح كلية التربية العلوم الانسانية في جامعة واسط انعقد مؤتمر كلية التربية الخامس حيث قدم إلى المؤتمر (١١٧) مئة وسبعة عشر بحثاً شارك منها في المؤتمر (٩٦) ستة وتسعون بحثاً توزعت على تخصصات (اللغة العربية، اللغة الانكليزية، والتربية وعلم النفس، والتاريخ، والجغرافية) . وقد أثنى جميع من شارك في المؤتمر أو حضره بالجهود التي بذلت من اجل إنجاحه من حيث الإعداد ونوعية البحوث العلمية والاستعدادات التي بذلت من اجل اخراج هذا المؤتمر العلمي بالشكل الذي يليق بسمعة جامعة واسط والحركة الناهضة التي شهدنا وزارة التعليم العالي والبحث العلمي في ظل رعاية معالي وزير التعليم العالي والبحث العلمي الأستاذ علي محمد الحسين الأديب

أثر المكان في فهم الجملة عند سيبويه

أ.م.د. حسن عبد الغني الأسدي، كلية العلوم الإسلامية، جامعة كربلاء

ملخص البحث:

ورد المكان في الفكر السيبويهي في جانبين: الأول: الظرف الذي تتضمنه الجملة والثاني: ظرف الجملة، وتمتلك البيئة التي تتم بها عملية التواصل؛ وهو ما توجهنا إليه هنا. فوظيفة النحوي لدى سيبويه تتجلى في أن تتم دراسة الكلام في إطاره الاجتماعي التداولي؛ لأن اللغة العربية عنده كانت لغة خطاب ولم تكن لغة معيار يراد تعلم قواعدها لارتقاء الفصاحة. على الرغم من أن المكان عنصر ظريفي نحوي إلا أن المتكلمين يضمنونه في كلامهم؛ وقد مثل الاهتمام به في التحليل النحوي عند سيبويه ريادة له وإحساساً منه باللغة المؤداة فوق مرحلته على نحو نزع به والأمور أخرى بعربية سيبويه وبصريته؛ تلك العربية التي تمثلها ثقافته، ونمط تفكيره والتمازج إلى المكان؛ وإلى هذه اللغة التي درسها سيبويه من بعد عربي فصيح؛ شهد له القاصي والداني بما ثم يشهدوا به لغيره خلا أسناده الخليل. فالعربية لغته الأم، وبصريته الثقافية والاجتماعية واضحة في كتابه. ولقد اتخذ في معالجة خصوصياتها منحى يصعب على غير ابن اللغة وبنيتها اتخاذ؛ هو منحى يقوم على الاستقصاء والوصف ثم التفسير.

نقد انعكس الاهتمام بظرف التكلم عند سيبويه في محاور أبرزها:

١. المحور الأول: حول الكتاب وصاحبه
٢. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
٣. المحور الثالث: الأثر التداولي للمتكلم في البناء النحوي للكلام.
٤. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب (الخلف).

كان كتاب سيبويه إرهاباً لقواعد تكثير نعوي شبيهة البصرة، وهو تفكير تم تطويره على يد الخليل بن أحمد الفراهيدي (ت ١٧٠هـ)، وتلميذه سيبويه (ت ١٧٥هـ) وهو تفكير ينتمي إلى بيئته، ويستوحى بعض مظاهرها البصرية. في مقابل من يقول بالأثر الخارجي، ولعل العروج على قومية سيبويه، والتأكيد على أصله الفارسي، شيء من لمح ذلك الأثر فهو شجرة قارس أثبت أكلها في البصرة. ونحن هنا نعتقد أن شيئاً يمكن أن يقال ههنا في عربية سيبويه، ومن الواضح أننا لن نأتي على ذكر الجينات الوراثية لقطع النزاع، بل حجتنا في ذلك بعض ما نوتته سيبويه نفسه وشيئاً مما نوتته المؤرخون. والأمر - على ما أرى - متعلق بإظهار عربية سيبويه وبصريته اجتماعياً وثقافياً، لما نعلم من أثر البيئة في تنمية أبنائها وتأطير ثقافتهم بخصائصها المكانية والزمانية.

لقد نظر الاتجاه التداولي في الدرس النحوي المعاصر إلى الكلام بوصفه انجازاً تتوارد فيه أثار متعددة من خارج اللغة فتكتلها جملة ودلالات مفرداته، ومن هنا: ((يلزم أن تدرس الأساليب والأنماط اللغوية داخل إطار العلاقة القائمة بين اللغة والمجتمع وتحليل تلك الأساليب إلى عناصرها الصوتية والبنائية والنحوية والدلالية لاستكناه هذه العلاقة وبيان طبيعة النمط الأدبي في اللغة ومدى تأثيره بالفعل الاجتماعي))^(١). ونزيد على هذا القول أن جزءاً من تلك التداولية تكمن في عالم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثير بالبيئة وحاله في ذلك كحال المتكلم، فسيعمد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والميول الاجتماعية المعاشة في عملية فهم مكونات درسه اللغوي، ومحاوره ومسندج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها؛ بل يضاف عليها الطرائق المتبعة لفهمها، لا سيما أن واحداً من نتائج النظر إلى كتاب سيبويه هو خطائية اللغة في عصره فسيبويه تعامل مع الكلام العربي بوصفه خطياً متداولاً بين أفرak بيئته، وهو في نحوه لم يكن يعزل عن الحركة العلمية ولا سيما الاجازات الفقهاء والمفسرين في عصره. فالكلام بوصفه انجازاً حضارياً هو وليد ظروف علمية واجتماعية ونفسية عامة، وخاصة مرت بها البصرة، وعالمها الخليل وسيبويه في تلك الحقبة المهمة من الحضارة العربية الإسلامية.

ومنهجي في البحث الاعتماد على ما قاله الخليل وسيبويه فسطورهما أحق بأن نردها لفهمهما، على العموم فلنح في هذا البحث سنلج جوانب مختلفة نظير فيها مدى التفاعل الكبير بين النحوي المبدع وبينه الذي استزاد منها مسارات لإبداعه. والمكان من بعد عنصر غير نعوي، (لأن المتكلمين يعمنون إلى اكتنازه في أدائهم وإن استرجاعه أو استحضاره في التحليل النحوي- عند سيبويه- يمثل في نظرنا جانباً من الإحساس العميق بالانتماء إلى البيئة البصرية العربية. وكان له أثر فاعل في

(١) أسلوب النداء دراسة لغوية صوبوتية: ٨٨.

توجهات الدرس السيبيوي، وإثراء بعض جوانبه. ونرى أن هذا العنصر العكس في محاور عدة أبرزها:

١. المحور الأول: الكتاب وصاحبه
٢. المحور الثاني: بنائية اللغة أو هيكليتها المعمارية عند الخليل وسيبويه.
٣. المحور الثالث: الأثر التداولي للمنكلم في البناء النحوي.
٤. المحور الرابع: الافتراض السياقي للخطاب (الخف).

المحور الأول

الكتاب وصاحبه

سيبويه بصري واضح البصرية، وعربي فصيح شافه الأعراب وسمع منهم وروى عنهم الكثير، وله منهج للنظر في كلامهم أخذ اسمه عن أستاذ الخليل، حتى أن طريقة تناوله النحو تختلف اختلافاً جلياً عن طريقة معاصريه وخلفه و((...الصورة التي يمثلها سيبويه هي الدليل الأوضح على أن النحو العربي في بداياته لم يكن معيارياً خالصاً، بل كان أصق ما يكون بالتنظير اللساني الحديث. وهو ما قاد النحويين الأوائل إلى الوصول إلى مفاهيم غاية في الدقة والعمق والغنى النظري، ومن ذلك القول بأن الإعراب إنما هو نتيجة لعمل الكلمات بعضها في بعض. وقد اكتشف المتخصصون في اللسانيات الحديثة، وبخاصة في إطار اللسانيات التوليدية، هذا الغنى النظري في النحو العربي المبكر. وهو ما دعا هؤلاء إلى القول بأن النحو العربي في صورته تلك يستشابه مع الدراسات اللسانية الحديثة، إن لم يتماثل معها، في الأهداف وفي طريقة البحث وفي الوصف والتفسير))^(١). وهو أمر يلاحظ مع كل صفحة من صفحات الكتاب، ولا يبعد أن عمق الانتماء إلى البيئة واللغة هما الأساس الأول في هذه الوصفية التفسيرية التي ظهرت عند الخليل وسيبويه، ولم تظهر عند خلفيه الذين تسلطت عليهم هبة سيبويه وسلطوته، فلم نرى إثراً لمعايشتهم اللغة في بيئتها، فلم يكونوا نحويين بل كانوا رواة النحو^(٢).

وعلى الرغم مما قيل في أن سيبويه لم يضع اسماً لكتابه فإني أرى أن كتاب سيبويه أو الكتاب هي تسمية من وضع سيبويه متأثراً بتسمية القرآن الكريم كتاب الله، وكما أن القرآن كتاب الله المهيمن على كل الكتب السماوية، فكذا أراد سيبويه أن يكون لكتابه تلك المنزلة في النحو العربي فإلى جانب ما تعارف عليه الناس زمن سيبويه بإظهار ما يمتازون به فتجد حفاوة كل قبيلة بإظهار كتابها أو ديوان

(٢) مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة: ٢٠٧. حمزة بن قحطان المزيبي كتاب الرياض

(٣) وهي تسمية استعملها د. حمزة بن قحطان المزيبي في بعض مقالاته، ينظر: كتاب رياض القسم الثاني: ٢٠٥.

شعرها لأنه صورتها التي تحب أن تعرف بها، فقد أورد سيبويه نصاً ينطق بحاله، إلا قال: ((وثقول إذا نظرت في الكتاب: هذا عمرو، وإنما المعنى: هذا اسم عمرو، وهذا ذكر عمرو، ونحو هذا، إلا أن هذا يجوز على سعة الكلام...))^(١). إذ يبدو أنه قد أورد نفسه هنا فصراح باسم (الكتاب) واسم صاحبه عمرو وهو اسمه.

كما يعزّز هذا الانتماء اسم سيبويه، فلو تخيلنا تلك اللحظة أن سيبويه لم يعرف بهذا اللقب بل عرف باسمه عمرو بن عثمان بن قنبر، أو عرف بإحدى كناه (أبي بشر أو أبي الحسن أو أبي عثمان)، فهل من يسمع بهذا الأسماء والتسبب يقول أنه فارسي الأصل، فكل هذه الأسماء عربية عريقة في العربية^(٢)، وليست من أسماء العجم بل إن اسم قنبر أو قنبر^(٣)، أو قنبر كما في الجمهرة^(٤) عربي فتح، والقنبرة طائر معروف، وجاء في العين قوله: ((القنبر: ضرب من الحمر، ودجاجة قنبرانية: على رأسها قنبرة، أي، فضل ريش قائم، مثل ما على رأس القنبرة. قال أبو الدقيش: قنبرتها: التي على رأسها))^(٥).

ما يعنى صعبية أن يُسمى به من ولد في البيضاء في أصطخر من بلاد فارس وتركها صبيها ليسكن البصرة، فهو قول لا يتمجم وواقع الحياة الاجتماعية وظروفها. فلا يبعد أن تكون البصرة محل ولادته ومرجع صباه، ولا أقل من أن تكون محل سكن عائلة جدّه قنبر، وإذا قدرنا ذلك، بالسنين وأخذنا في الحساب مدة خمسين سنة لكل جيل تكون هذه العائلة قد عرفت العربية لغة وبيئة مع بداية انتشار الإسلام خارج الجزيرة؛ فوفاة سيبويه كانت (١٨٠ أو ١٧٥ هـ) ولما كان لكل جيل ٥٠ سنة على ما هو متعارف قد (١٥٠) تكون لثلاثة أجيال وبذا فعائلة سيبويه في (٣٠ هـ تقريباً) كانت في بلاد العرب علماً أن فتح أصطخر كان في حدود ٢٨ هـ أو بعد ذلك بقليل^(٦)؛ فلا أقل من أن والد سيبويه فضلاً عن سيبويه كان يعيش في البيئة العربية، وهو ما تفويه الرواية التي تذكر أن جدّ سيبويه (قنبر) دخل

(٤) (الكتاب ٣/٣٦٩، وينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه: ٤٠).

(٥) يرى الأستاذ علي النجدي تاصف (سيبويه إمام النحاة: ٧٤) من متعلق تسليمه بأصل سيبويه الفارسي أن في تنفي هذه الأسماء من عائلة سيبويه زلحق إلى الأمويين، وتولدت لعصبيتهم القومية لأنها من الأسماء التي اشتهروا بها. ولا يعدو هذا القول التخمين وسوء الظن بهذه العائلة، لا سيما أن هذه الأسماء تسمى بها العرب عامة لا الأمويون فقط، وإن ولادة سيبويه كانت بعد انهيار دولتهم، ولم يعرف من عائلته أنها تولدت للأمويين ليقال ذلك في أسمائهم. كما أن سيبويه لم يكن معالياً بهم أو بخلفاء بني العباس وولاتهم، ولم تكن رحلته إلى بغداد طلباً للزلفى عند الأمراء وحياً في صنتهم، وشهرته أوسع من ثلثي عليها بمعنى حيل الكسائي والقراء.

(٦) ينظر: سيبويه إمام النحاة: ٧٤.

(٧) قال في الجمهرة (١٣٤/٢) : ((وقنبر: اسم، وأحسب النون زائدة، والقنبر: طائر، وربما قالوا قنبر)).

(٨) العين ٥/٢٦٤.

(٩) ينظر: فوج البلدان: ٢/٤٨٠. البلاذري القاهرة مطبعة لجنة البيان العربي.

المحور الثاني

بنائية اللغة أو هيكليتها المصمارية عند الخليل وسيبويه

تبدو المقولات التي تشير إلى تأثير الإنسان ببنائه في الميادين العلمية شيئاً سألوقاً بل لقد كانت عند بعضهم مسئلاً للإبداع وتذكر هنا مؤسس علم اللغة الحديث دوسوسير فقد تأثر بمقولات دوركايم عالم الاجتماع في رؤيته للغة بوصفها ظاهرة اجتماعية، وكذا تأثر بلومفيلد بأراء عالم النفس السلوكي بافلوف؛ وتأثر تشومسكي بفلسفة ديكرت وغير ذلك؛ وكذا الحال في نقل بعض الاصطلاحات من علم إلى آخر كما في استعمال مصطلح القدرة البنائية للفعل وهو من مجال الكيمياء إلى المجال النحوي. وقد كانت للمستشرق كارتر وقفات لامة نمت عن قدر عال من العلمية ومن تلك الوقفات تأمله في مصطلحات سيبويه لا سيما في باب الإحالة من الكلام والاستقامة فقد ربطها بعلم الأخلاق الإسلامية، وهو في هذا من لواثل من دافع عن الأصول الإسلامية للنحو العربي ووقف في وجه العديد من ممن زعموا نسبة النحو العربي إلى المنطق الأرسطي؛ يقول بعض الباحثين في كارتر: ((هو يرى أن مفاهيم النحو إن لزم لها أن لها جنوراً وأصولاً، ينبغي البحث عنها في حقول المعرفة الإسلامية وليس خارجها؛ نظراً لتفاعلها الطبيعي المدهش داخل البنية المركبة للعقل العربي والمسلم، وخلافاً لما ذهب إليه دعاة الجابري الذي إن سلمنا له بأن ما ورد في باب الاستقامة من الكلام والإحالة هو جهة من جهات أو موجات Modalites مركبة، ومعلوم أنها شديد الصلة بالمنطق))⁽¹⁴⁾.

وقد بين لي -دراسة خاصة- أن سيبويه أتبع منهاجاً تفسيرياً مستوحى من عمل المفسرين، لذا وسمت منهجه في تناول الكلام بالمنهج التفسيري، ويتجلى رأي سيبويه لكيفية فهم كلام العرب، ودراسته بقوله في (مررت بقائماً رجلاً): ((فهذا كلام قبيح وضعيف، فأعرف قبحه، فإن إعرابه يسير. ولو استحسناه لقلنا هو بمنزلة: فيها قائماً رجلاً؛ ولكن معرفة قبحه لمثل من إعرابه))⁽¹⁵⁾؛ ففهمة النحوي عند سيبويه لا تقتصر على معرفة الإعراب، والأولى له أن يعرف جهات صحة الكلام وقبحه، ولا يتأتى ذلك إلا بعد معرفة أسرار الكلام وعلمه تشفعه سليفة لغوية، وحسن مرهف لا يتأتى إلا لمن كانت العربية رفيقه ومؤاسه، والنحوي عند سيبويه يجب أن يعني بما تكلمت به العرب؛ لا بما لم يسمع منها؛ قال سيبويه: ((وتجزي هذه الأشياء التي هي على ما يستخفون بمنزلة ما يحذفون من نفس الكلام ومما هو الكلام على ما أجروا فليس كل حرف يحذف منه شيء ويثبت فيه نحو بك ويكون ولم أبل وأبال، لم يحملهم ذلك على أن يفعلوه بمثله ولا يحملهم إذا كانوا يثبتون فيقولون في مرأ أمر

(14) انجد لتداولي عند سيبويه : ٢٤٩.

(15) كتاب سيبويه : ١٢٤/٢.

الإسلام في عهد الإمام علي (عليه السلام) وقد يكون سماه على اسم مولاه قنبر (رض)^(١٠). ومن هنا كيف يتسنى القول بولادة سيبويه باصطخر، ثم مجيئه البصرة مبكراً^(١١)، مع فصاحته التي ظهرت مع أولى دروسه في تلقي الحديث عند حماد بن سلمة^(١٢)، وعلى العموم فتفاصيل نشأة سيبويه وعائلته قليلة ويعتريها الغموض، ولا يبعد كونها أسرة عربية غير معروفة اختلق لها هذا النسب لأسباب كثيرة.

وإذا كان المعول في فارسية سيبويه لاحقاً لقبه (ويه) التي قيل أنها فارسية تعني رائحة، وبسبب التي تعني ثلاثين، فسيبويه نفسه يذكر كونها مما يلحقه العجم بالأسماء كما في النص الذي يقول فيه: ((وأما عمرويه فإنه زعم^(١٣) أنه أعجمي، وأنه ضرب من الأسماء الأعجمية، وألزموا آخره شيئاً لم يلزم^(١٤) الأعجمية، فكما تركوا صرف الأعجمية جعلوا ذا بمنزلة الصوت، لأبهم رأوه قد جمع أمرين، فحطوه درجة عن إسماعيل وأشباهه، وجعلوه في النكرة بمنزلة غافق، منوثة مكسورة في كل موضع))^(١٥). فواضح أن سيبويه يرى أن (ويه) التي لحقت (عمرو) ليست مما يلحقه العجم بأسمائهم، فهي أشبه بتصويث يلحق هذا الاسم فهو نقي واضح تكون اللاحقة أعجمية؛ ويبدو أن ذكره اسم عمرو دون غيره (وهو اسم سيبويه) يكشف رغبته في إظهار عريته ويعزز كون (ويه) من اللواحق التي كان البصريون يوردونها أسماءهم. ولقد أكد النحاة في باب المنوع من الصرف أنهم لا ينظرون إلى لفظة سيبويه في منع صرفه أو بذائه على التكسر بوصفه أعجمياً بل لأنه علم مركب، ما يدعونا للنظر إلى هذا اللقب بوصفه انعكاساً لبعض العلاقات الاجتماعية التي تبرز في اختيار الألقاب تنمياً أو تشبيهاً أو لمجرد التمييز فيوردون الكنى والألقاب بعضهم على بعض، خاصة لمن كان بارزاً من بين أقرانه ونحو ذلك.

ولا يبعد أن تكون المنافسة بين العلماء عاملاً في مثل هذه رغبة بالحط من منزلة سيبويه فليد كان سيبويه لا يدانيه أحد كما كانت البصرة معنة للكوفة وبغداد بالخليل وسيبويه وقبلهما بأبي عمرو بن العلاء. ولقد استشعر الكسائي الكوفي حاجته لمعرفة ما عند سيبويه، ومثله القراء؛ ولقد يسئ لنا الكسائي أن مثل هذا الميثاق قد يصدر منه ومن مناصريه بما حدث في المسألة الزنبرية، وقد روى القراء أنه بعد أن بحث عن سيبويه وجده لا يحسن نطق جملتين نطقاً صحيحاً، ولكنهم بعد موته وجدوا تحت وسادة رأسه نسخة من الكتاب^(١٦).

(١٠) كتاب سيبويه: ٧، محمد علي النجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.

(١١) ممن الممكن قراءة الفعل مينا للمجهول (زعم) لا (زعم أي: الخليل).

(١٢) أورد علي التجدي ناصف النص: ((وألزموا آخره شيئاً لم يلزم الأعجمية)) (بولا ٢/٥٢-٥٣) نقلاً عن خيمة

بولا ٢/٥٢-٥٣. ولما عنت إليها، وجدت أن المختار فيها (لم يلزم) ؟! وكذا في طبعة المحقق عبد السلام محمد هارون

(٢٠١/٣) وأيضاً طبعة أخرى للكتاب بهامشه تحصيل عين الذهب للمستعري نشر مؤسسة الأعلمي: ٦٠/٣ !!!.

(١٣) كتاب سيبويه: ٣/٢٠١.

أن يقولوا في خذ أخذ وفي كل أكل، فيقف على هذه الأشياء حيث وقفوا ثم فسروا^(١٦) وأن القياس النحوي له خصوصيته فقد لا يطرد في بابه، وبذا فهو أداة لفهم الكلام لا لتقييد الاستعمال. فمناهج سيبويه منهج الوصف التفسيري^(١٧)، ففي الوقت الذي يحافظ على المسموع والمروي من كلام العرب، يؤسس لحالة تالية يضع لها معياره الخاصة لاستكشاف أنساق الكلام وتحولاته، وتفسير ظواهره. فالتطريق الذي شقّه الخليل وسيبويه يرى أن كلام العرب بوصفها سنجز من منجزات الإنسان بمنزلة البناء يبنيه الإنسان كما يبنى بيته، فكانت هيكلته ومكوناته تستعير هيكلية البيوت ومكوناتها، غلقت ثم رصد هندسة تلك البيوت وأتية ارتفاع جدرانها وترتيبها على نحو مبظم وتراصف قطع اللبن فيها أفقياً وعمودياً ليستقيم البناء، والإفادة منها في تفسير بناء الجملة وامتدادها، وترابط ألفاظها وتأثير بعضها ببعض. وهو أمر برز في عمل سيبويه بنحو واضح، فكانت البيئة مصدر إراء في التأسيس لمرحلة جديدة من الدرس النحوي وهي مرحلة لفت الانتظار إليها برائدها الخليل وتلميذه سيبويه. تقوم على فكريّ تنظيريّ رصين لا يفصل عن بيئته، بل اتجاهاً نمت على يد بعض أبنائها ممن لا يتعجب منه ذلك، فلا دخيلة فيه لتأثير خارجي كما يحلو لبعض الباحثين القول به.

تلك الخطوة التي ظهر بها في الكتاب لم تكن إلا انعكاساً لحضوره المهيمن على الدرس النحوي في زمانه وما ورد في الكتاب في الغناء لبيان الفكر البنائي لدى الخليل وتلميذه، لكن النص الذي أورده الزجاجي (ت ٣٢٧هـ) في كتابه الإيضاح في علل الشعر عن الخليل يعد وثيقة من الخليل نفسه أيلن فيها عن منهجيته إذ أجاب عما وقع من استغراب أو استنكار لطرائقه في التعليل لكلام العربيه: قال الزجاجي:

((ذكر بعض شيوخنا أن الخليل بن أحمد - رحمه الله - سئل عن العلل التي يعتل بها في النحو، فقبل له: عن العرب أخذتها أم اخترعتها من نفسك؟ فقال: إن العرب تظقت على مسجيتها وطباعها. وعرفت مواقع كلامها، وقام في عقولها عنده، وإن لم يُنقل ذلك عنها واعتلت أنا بما عندي أنه علة لما عثته منه، فإن أصبت العلة فهو الذي التصبت، وإن تكن هناك علة له فعثلي في ذلك مثل رجل حكيم دخل داراً محكمة البناء، عجيبة النظم والأقسام؛ وقد صحت عنده حكمة بانبيها بالخبر الصادق أو بالبراهين الواضحة والحجج اللاتحة، فكلما وقف هذا الرجل في الدار على شيء منها، قال: إنما فعل هذا هكذا لعل كذا وكذا، ولسبب كذا وكذا، سنحت له وخطرت بباليه محتملة لذلك. فجاز أن يكون الحكيم الباني للدار فعل ذلك للعللة التي ذكرها هذا الذي دخل الدار، وجاز أن يكون فعله لغير تلك

(١٦) كتاب سيبويه ٢٦٦/١.

(١٧) يبدو أن هذا المنهج هو في الأصل منهج التحليل وينتج ذلك من تتبع تعلماته التي ذكرها سيبويه - ينظر بحثه:

التعليق في الدرس النحوي (نظرة في أصول اللغة) في غير موضع؛

الغنة؛ إلا أن ذلك مما ذكره هذا الرجل محتمل أن يكون غنة لذلك، فإنه سنج لغيري غنة لما غلته من النحو هو أليق مما ذكرته بالمعقول فليأت بها^(١٨)، وهو طريق وصفها الزجاجي بقوله: ((وهذا كلام مستقيم وإصناف من الخليل (رحمة الله عليه)))^(١٩).

لقد صور الخليل موقفه من اللغة بما يأنه الناس، ويعجبهم في أحيان كثيرة وتأخذهم روعة بذاته، وقد ألفوا الحرمان من مثله، فأغلب سكنهم في بيوت من طين البصرة وقصبها وجريد نخيلها، وجنوعه، فكان لتمثيل الخليل ما ينثر في النفوس التطلع نحو ما سيقوله هذا الحاذق في أسباب هذا البناء وأوضاع جدرانه وأبوابه ونوافذه. على أن استغرابهم قد يلح عليهم فيقول واحد منهم متعجبا: أين الخليل من هذا البناء؟^(٢٠) وهو يعيش في حصن لا يشعر به، ترفعا عن تلك القصور التي لو أراد الوصول إلى مثلها لما أعجزته همته لكنه أثر الابتعاد عن الترفل لولاة عصره الظلمة. وعلى وفق هذا الوضع الاجتماعي لتشبيه اللغة بالبناء عمل الخليل مقاربه للكلام في بيان منهجيته، التي ننلنا على ما يأتي:

١. النظام النحوي يقوم على أسس عقلية، قائمة في عقول متكلمي تلك اللغة. ويمكن أن تكون تلك الأسس هي مجموعة الأصول التي ظهرت عند سيبويه في إطار نظرية الأصول النحوية عنده^(٢١)، وهي التي تمثل المستوى القبلي المستحكم بطبيعة تكوين المستوى الظاهر وطبيعة التحولات التي تطرأ على الكلام.
٢. الكلام عبارة عن بناء (نسق) منظم. ويتخذ هذا النسق بعددين: أفقي وعمودي.
٣. تتخذ الجملة التكوين العمودي لوحدها فمكونات الجملة ترتفع الواحدة فوق الأخرى.
٤. تمثل كل لبنة في هذا البناء لفظة مرتبطة بلفظة أخرى في الألف. وتتتابع اللبنات يمثل سلسلة الكلام.
٥. تتخذ اللبنة الأولى في هذا البناء موقع الأساس الذي ترتفع عليه بقية لبنات الصف، وبذا فكل لبنة فيه هي متعلقة في الأصل بذلك الموقع.
٦. الاحتياج إلى الموقع الأساس يمثل الرابط بين لبنات البناء في الصف العمودي الواحد.
٧. الكلام (الأداء) هو الذي يعتمد للوصول إلى الكشف عن النظام اللغوي وفرواده التي تعطيه هذا الانتظام لا أن تعتمد المفاهيم المجردة لإقامة تصوراتنا حول ذلك النظام. لأن الدار واقع يتأمله الحكيم.

وقد عمل الخليل على توظيف تصويره البنائي لهيكل اللغة في الجملة العربية، وما قيمه تلميذه

(١٨) الإيضاح في علم النحو : ٦٥ - ٦٦ .

(١٩) الإيضاح في علم النحو : ٦٦ .

(٢٠) للتفصيل : ينظر مفهوم الجملة عند سيبويه : ٢٦٣ - ٢٦٨ .

بالقلام باحثينا نضع الحياة ١٣. ١٤ نيسان ٢٠١٢

سبويه في هذا الجانب يمكن أن يفسر في ضوء النص الخليلي، بل هو الذي أبرز ذلك النص بوصفه عملاً نظرياً متقناً في تحليل الجملة العربية. ولعل أولى الملاحظات في هذا الإطار تكمن في دخول ألفاظ مادة (بنى) في النحو، وقد استعملها الخليل في كتابه الجمل في النحو بقوله في أم: ((ولذلك لا تجيء مبتدأة إنما تكون على كلام قبلها مبنية استفهاماً أو خبراً))^(٢١)؛ وقال في موضع آخر: ((... فأما الذي هو اسم للفعل فمبني على الفتح لا يضاف ولا يدخله التنوين))^(٢٢). وكتاب سبويه زاخر باستعمال هذه المادة فمن النظر إلى ترابط الألفاظ داخل الكلام فالثاني مبني على الأول، إلى حالة البناء المقابل للإعراب، إلى بناء المفردة؛ وقد أحصيت لهذه المادة في الكتاب (٩٨٩) مورداً. وهذا يشير إلى مدى تأثير فكرة البناء في نحو الكتاب.

لقد أكد الخليل هذا المنحى اللغوي في تحليله لكلام العرب بقوة عندما صاغ مصطلحات الجملة الأساسية باعتماده على مادة (سند) فأطلق الإسناد على العلاقة النحوية بين طرفي الجملة، ومنها اشتق مصطلحي ركني الجملة، ولا يخفى رجوع المعنى اللغوي لهذه المادة إلى البناء لدلالاتها على الارتفاع كالجبل ونحوه، فأطلق لفظة السند على المبتدأ ولفظة السند على خبره جاء في العين في مادة (سند) قوله: ((السند: ما ارتفع من الأرض في قيل جبل أو وادٍ. وكل شيء أسندت إليه شيئاً فهو مسندٌ. والكلام سندٌ ومسندٌ كقولك: عبد الله رجلٌ صالحٌ، فعبدُ الله سندٌ ورجلٌ صالحٌ مسندٌ إليه))^(٢٣). ويعني هذا أن وجود لفظة ما في الموقع الأول في الجملة (أساس البناء) ينتج لزوماً وجود موقع ثانٍ يرتفع فوقه في أقل تقدير. فالكلمة الأولى اتسمت بفترة موقعية ويعبر عن هذه الفترة بـ (إقراغ أو خلق مجالات نحوية) هي الحال التي تشغلها الأسماء للقيام بوظائفها في الجملة. وهو تصور لبناء الجملة يرسم معالم بناء الجدار كما هو واضح فوضع اللبنة الأولى يجعلها سبباً في إيجاد محل فوقها تشغلته لبنة أخرى. وهكذا تتابع اللبنيات الواحدة فوق الأخرى مع استنادها في الأصل على اللبنة الأولى العلة الأساس لإقامة البناء^(٢٤). ونحن نلاحظ أن هذه الرؤية قام سبويه بتطويرها كما سيأتي لاحقاً.

من جانب آخر فإن ترسم معالم البناء في النحو كان له أثره في التأسيس لنظرية العامل، التي كان فيها للعلماء والباحثين جولات من الأخذ والرد، بعد أن اصطفت بصيغة فلسفية، أو منطوقية غير

(٢١) الجمل في النحو للخليل: ٢٣٩.

(٢٢) الجمل في النحو للخليل: ٢٣٨.

(٢٣) العين: ٢٢٨/٧-٢٢٩.

(٢٤) ينظر: المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سبويه: دراسة وتحليل ١٠١١، وتكوين الجملة واستنادها عند سبويه

في ضوء منهجه التفسيري للنحو: ٨٥.

النظرة السيبويهية⁽²⁵⁾، ذلك لأننا استناداً إلى تداولية هذه اللفظة في تلك الحقبة التي ظهرت فيها نظرية العامل في الكتاب نلاحظ أن هناك ربطاً بين اختيارها للدلالة النحوية الجديدة ودلائلها النحوية أو العرفية، فقد نكر صاحب العين ما يدل على تعلّقها بحقل (الإنشاء والبناء) فالعامل ((والغنة: الذين يعملون بأيديهم ضرورياً من العمل حقراً وطيباً ونحوه... وتقول: أعطه أجر عمله وعمله، ويقال: كان كذا في عملة فلان علينا، أي: في عمارته. ورجل عميل: قوي على العمل. والعامل: القوي على العمل. الصابر عليه، وجمعه: عمل. وأعمت إليك المطي: أعميتها. وفلان يعمل رأيه ورُمحه وكلامه ونحوه عمل به. والبناء يستعمل اللين إذا بني))⁽²⁶⁾، فالربط واضح بين العامل في النحو وما يمكن أن يمثلته البناء في المحيط الاجتماعي، فالعامل هو الذي يبني الجملة، وهو تصوّر يعود بالعامل إلى معطيات لغوية- مكانية، وينأى به عن الجدل الذي قام حول نظرية العامل بين المتأخرين وفي العصر الحديث. ولو تأملنا ذلك لوجدنا أن عامل الجملة هو اللبنة الأولى، وهي اللفظة التي تشغل موقع المسند. وعملها لا يقتصر على الجانب التكويني (المجرد) بل إن التكوين يمتد ليُفسر بقية الربط بين مكونات الجملة وموقع المسند في البداية، ولكنه يفقد من الجانب الدلالي لالتقاط (الاعتداد بسمات المسند الدلالية) لاسيما فيما يقتضيه سيبويه في هذا الجانب⁽²⁷⁾، بل إنه في المفاعيل التي تلي المفعولين (الثلاثة) يبدأ العامل النحوي والدلالي بالضعف ليتم تقوية الربط من جانب آخر يتمثل بمتطلبات العملية الكلامية التي تدخل فيها رغبة المتكلم، وأهمية هذا الجانب في النحو العربي واضحة، وهي بحاجة إلى تفصيل ليس هذا محله.

ويبدو واضحاً أن سيبويه قد أثر نظرية أساذه فطلق يستعمل مصطلحاته البنائية، الدالة على هيكلية معمارية في عموم المصطلحات النحوية فمن حالات الإعراب (النصب والرفع والجر أو الخفض) التي استيعض بها عن الحالات الصوتية (الفتح والضم والكسر) إلى التعبير عن ملازمة الكلمة لحالة واحدة أصطلح عليها بالبناء في قبالة التغير (الإعراب) إلى مصطلحات أركان الجملة الأساسية، وعلاقات الربط بين الوظائف داخل الجملة.

وكان لهذه الصورة الإنشائية صدى في ترتيب الأبواب النحوية فمواضع النصب كانت مقدمة في كتاب الجمل المشسوب إلى الخليل بن أحمد، وفي كتاب سيبويه، وإذا كان كتاب الجمل لا يسعفنا في الوقوف على سبب هذا الاختيار من الخليل نفسه لاختصاره فعند سيبويه الكثير الذي يظهر النصب بوصفه موضع العمل الحقيقي للعامل النحوي، لأن موضع الرفع الرئيسي في الجملة وهو المسند إليه

(25) ينظر: المفهوم التكويني للعامل النحوي عند سيبويه دراسة وتحليل: ٦ وما بعدها.

(26) العين: ١٥٤/٢.

(27) وذلك في باب الاستقامة من الكلام والإحالة وهو الباب السادس من مقنة كتابه وفي مواضع أخرى من كتابه.

سلازم للمسند (فعلاً أو اسماً)، وهذا التلازم لا يظهر عمل المسند بوضوح، فكان النصب هو ميدان العمل النحوي، لأن الوظائف المنصوبة تلبى احتياجات العامل الرئيسي في الجملة (المسند) وتلبي حاجة المتكلم، وهو أمر يتسجم مع الدلالة المتداولة في أيامها للفظ (نصب) المنتمية إلى حقل الإنشاء، فقد جاء في العين قوله: ((النصب: الإعياء والتعب... والنصب: حجر كان ينصب فيعيد ونصب عليه دماء الثبائح وجمعه أنصاب، والنصب: العلم. والنصب: جماعة النصبية، وهي علامة تنصب للقوم... والنصبية واحدة النصاب، وهي نصاب الحوض، وهي حجارة تنصب حوالي شفيره فتجعل له عضائد. والنصب: رفعت شيئاً تنصبه قائماً منتصباً. والكلمة المنصوبة ترفع صوتها إلى الغار الأعلى. ونصبت فلاناً الشر والحر والعداوة ونحوها. وكل شيء استقبلته فقد نصبت. وتيسر نصباً، وعزّة نصباء، أي منتصب القرن. وناق نصباء: منتصب مرتفعة الصدر))^(٢٨).

فدلالات ألفاظ هذه المادة ترتبط بالارتفاع والجهد، ورفعت الشيء يستوجب الجهد، وفيما جاني البناء والعمل. مع انسجام هذه الدلالة مع وضعية النطق التي يتخذها اللسان بارتفاع قليلة نحو سقفت الغم (الغار). كما أنه عبر عن الموضع الأول للنصب وهو المصدر المنسوب بفعله بأنه حمل على فعله من ذلك قوله في العين: ((التبى الخسار، وتبا له، نصب لأنه مصدر محمول على فعله كما تقول: سقيا لفلان، ومعناه: سقي فلان سقيا، وتبا يتب تباباً وتبا، ولم يجمع اسماً مسنداً إلى ما قبله))^(٢٩)، فمحمول لفظة تضاعف إلى الألفاظ الدالة على الارتفاع والبناء، ومن استعملاتها البارزة الحمل على المعنى^(٣٠)، ولقد اتخذ النصب منزلة وسطى بين الرفع والخفض (ولا يخفى تعلق هاتين اللفظتين بمجال البناء)؛ لأن الرفع يستعمل نقيض الخفض وهو الجر، كما في العين بقوله: ((والرفع: نقيض الخفض. قال:

فاخفض ولا تنكر لربك قذرة... فإله يخفض من يشاء ويرفع
والرفعة نقيض الذلة))^(٣١).

المحور الثالث

الأثر التداولي للمتكلم في البناء النحوي

(28) العين :

(29) العين : ١١٠/٨ .

(30) ينظر: كتاب الجمل في النحو: ٦٥، و ٢٦ و ١٦٨ وغيرها.

(31) العين: ١٢٤/٢.

الملاحظة الأولى التي تستوقفنا هنا أن سيبويه لم يرتضِ اصطلاح أستاذ الخليل على ركني الجملة بـ (السند والمُسند)؛ بل عمد إلى صياغة مطوّرة عنهما فاستعمل مصطلحي المسند والمُسند إليه؛ وهو ما نجده في أولى صفحات الكتاب بقوله: ((هذا باب المسند والمُسند إليه وهما ما لا يغنى واحد منهما عن الآخر ولا يجد المتكلم منه بدأ فمن ذلك الاسم المبتدأ والمبني عليه وهو قولك: عبد الله أخوك، وهذا أخوك؛ ومثل ذلك يذهب عبد الله. فلا بد للفعل من الاسم كما لم يكن للاسم الأول بدأ من الآخر في الابتداء))⁽³²⁾. فاختار نقلة (سند عوضاً عن مصطلح أستاذه سند، واختار المسند إليه عوضاً عن المسند) ((وهو استعمال أكثر إحصاءً إلى أثر المتكلم في صياغة الجملة فهو اتّفاعل الحقيقي للكلام الذي يقوم بوضع هذه اللفظة أولاً وفي (المُسند) وصياغتها على وزن اسم المفعول من الرباعي (أسند) إشارة إلى تأثر هذه اللفظة أو تقبلها لفعل سابق هو فعل المتكلم الذي أنشأها في أول الكلام؛ على حين أن (سند) لا يلمح منها هذه الدلالة فكان سيبويه أراد أن يشير إلى البناء الحكيم الذي أنشأه الدار. ولا يغيب عنا أن فهم الجملة يتوقف في بعض مجالاته على تحديد هوية المتكلم ومقصده وبخاصة في إدراك المحتوى الدلالي للجملة))⁽³³⁾.

وهو أمر لم ينتبه له الخليل فأقام تصور « الجملة (سند + مسند) على بعد لغوي صرف تبناء الجملة بإرجاعه ذلك إلى اللفظة الأولى في الجملة. على حين إن تطوير سيبويه لبنائية الجملة توجّ بنظرة تداولية، نحو البعد الاجتماعي لبناء الجملة، فصور بذلك سجالات من مجالات عدة لفهم الجملة، تدخل فيه العلاقات السياقية التي تلاحظ في سلسلة الكلامية، على نحو يتمّ النظر إلى الكلام بوصفه عملية تفاعل بين المتكلمين، وهو يعمل على التكيف لمتطلبات الحياة الاجتماعية، ومتطلبات التواصل بين الأفراد، وهو تحول مهمّ تمّ رصدّه في اللسانيات المعاصرة فـ ((نلاحظ النقطة النوعية في اللسانيات التداولية التي تجاوزت في دراسة الإنتاج اللغوي البنية الصوتية والنحوية والدلالية إلى البحث في الآثار الاجتماعية والإنجازية للغة، فأصبحت اللغة في ظلّ هذا التحول فضاءً للإجاز والممارسة والفعل، حيث الأمر والنهي والاستفهام، وغيرها مما يمثل إجازات لغوية))⁽³⁴⁾.

كما نغتنر إلى الجملة بكونها نسج من المعلومات يتم تبادلها بين المتكلمين، لكن هذه المعلومات متفاوتة في أهميتها للمخاطب فبعضها يعلمها المخاطب، والأخرى جديدة، وفي ظلّ جملة من التوافقات

(32) كتاب سيبويه: ٢٣/١.

(33) تكوين الجملة وأستاذها عند سيبويه: ٨٥.

(34) المرجعية اللغوية في النظرية التداولية: ١٢.

بين طرفي العملية الخطابية (المتكلم والمخاطب) على نحو يشبه ما عرف عند بعض اللغويين بمبدأ التعاون^(٣٥).

على ذلك فإن أساس بناء الجملة يتم استثماره وظيفياً فيحتل المسند موقع المعلومة المشتركة ويحتل المسند إليه موضع المعلومة الجديدة^(٣٦). وقد أدرك سيبويه هذه النظرة الوظيفية بقوله: ((أخسه إنما ينبغي لك أن تسأله عن خبر من هو معروف عنده كما حدثته عن خبر من هو معروف عندك فالمعروف هو المبدوء به ولا يبدأ بما يكون فيه اللبس وهو النكرة ألا ترى أنك لو قلت كلن إسمان حليما أو كان رجل منطلقاً كنت تلبس لأنه لا يستكر أن يكون في الدنيا إسمان هكذا فكرهوا أن يبدعوا بما فيه اللبس ويجعلوا المعرفة خيراً لما يكون فيه هذا اللبس))^(٣٧)، وهو من الأصول المقررة عند سيبويه بقوله: ((وأحسنه إذا اجتمع نكرة ومعرفة أن يبتدئ بالأعرف وهو أصل الكلام))^(٣٨). ويلاحظ أن ذلك صيغ قواعدياً بعدم جواز الابتداء بالنكرة.

ولكن هذه النظرة الوظيفية الجملة متحولة بسبب عوامل متعددة. فقد يشغل هذين الركنين معاً موضع المعلومة المتواطأ عليها فيكون موضع المعلومة الجديدة في المراتب النحوية التالية كالمفاعيل، ويتم هذا إعادة صياغة الجملة وظيفياً كما في قوله تعالى: ﴿وَمَا خَلَقْنَا السَّمَاءَ وَالْأَرْضَ وَمَا بَيْنَهُمَا لَاعِبِينَ﴾ (الأنبياء ١٦)؛ فالحال لآعين يمثل المعلومة الأهم في الجملة فأنثت خلق السماء والأرض وزاد أن خلقها لم يكن لعباً.

على وفق ذلك نجد تحولات كثيرة تطال الجمل على ما يحتمل من مقامات تجعل صورتها التداولية مختلفة عما يري من صورتها النحوية. ومن هنا فمعظم التحولات التي تطرأ على النمط الأساسي للجملة العربية من مثل التقديم والتأخير والحذف واختزال الفعل تتم بدوافع تداولية، وهو أمر لم يرغب عن سيبويه أن يسجله في كتابه العتيد؛ فالمتكلم يستعمل نمط الجملة البينالي والدلالي لإظهار قصده؛ ففي قولك: ضربت زيداً ((إن قدمت الاسم فهو عربي جيد كما كان ذلك عربياً جيداً، وذلك قولك: زيداً ضربت؛ والاهتمام والعناية هنا في التقديم والتأخير سواءً مثله في ضرب زيداً عمراً

(٣٥) تقوم قواعد التخاطب عند غريس على مبدأ التعاون، فتمارسه اللغوية عنده نشاط عقلي هدفه التعاون بين المتخاطبين، ويخص غريس على مبدأ التعاون بقوله: ((اجعل مشاركتك على النحو الذي يتطلبه، في مرحلة حصولها، بفرض أو الحال المسلم به من التخاطب المعقود)). ينظر: الاقتضاء في التداول اللساني: ١٤٦، وينظر: اللغة والمعنى والسياق: ٢٢٨-٢٢٩.

(٣٦) تجدر الإشارة هنا إلى أن الحذف النحوي الوظيفي لا يقتصر في تكوينه على المعلومات التي تتأني له من دلالة الألفاظ المفردة، بل بما تقرضه تلك الدلالة من آثار على تكوين الجمل وطبيعة الوظائف التي يمكن أن تؤديها،

(٣٧) كتاب سيبويه: ٤٨/١.

(٣٨) كتاب سيبويه: ٣٢٨/١.

وضرباً عمراً زيداً⁽³⁹⁾. فالعناية والاهتمام المشار إليهما قرينة خارجية لا قرينة لغوية، وهي قرينة يقدّر المتكلم أهميتها لدى المخاطب، ولا تخفي قرينة الإعراب في إبراز العناية والاهتمام.

ويعمل سيبويه على تأكيد هذا الجانب بأن من الكلام ما لا يراد منه مقتضى ظاهره بقوله: ((وأما ما ينتصب في الاستفهام من هذا الباب فقولك أقيماً يا فلان والفاصل قعوداً وأجلوساً والناس يعنون: لا يريد أن يخبر أنه يجلس ولا أنه قد جلس وانقضى جلوسه ولكنه يخبر أنه في تلك الحال في جلوس وفي قيام. وقال الراجز وهو العجاج: (أطرباً وأنت قنصري)، وإنما لولا أنطرباً أي أنت في حال طرب لا ولم يرد أن يخبر عما مضى ولا عما يستقبل. ومن ذلك قول بعض العرب أغد غفدة البعير، وموتاً في بيت سلولية كأنه إنما لولا أغد غفدة البعير، وأموت موتاً في بيت سلولية، وهو بمنزلة أطرباً وتفسيره كتفسيره⁽⁴⁰⁾)).

وسمع حرص سيبويه على إظهار البنية الأصل لهذا الأسلوب يؤكد أنه لا يراد من هذه التراكيب الإخبار أو الاستخبار بالقر الذي يريد المتكلم تنبيه المتلقي إلى قصده من الإنكار، أو التحسر.

ويقول سيبويه: ((هذا باب ما جرى من الأسماء التي لم تؤخذ من الفعل مجرى الأسماء اتقى أخذت من الفعل، وذلك قولك أتميمياً مرة وقيسياً أخرى؛ وإنما هذا أنك رأيت رجلاً في حبال تلون وتنقل فقلت أتميمياً مرة وقيسياً أخرى كأنك كنت تحول تميمياً مرة وقيسياً أخرى فأتيت في هذه الحال تعمل في تثبيت هذا له وهو عندك في تلك الحال في تلون وتنقل وليس يسأله مسترشداً عن أمر هو جاهل به ليفهمه إياه ويخبره عنه ولكنه وبخه بذلك. وحدثنا بعض العرب أن رجلاً من بني أسد قال يوم جيلة واستقبله بغير أعور فتطير منه فقال يا بني أسد أعور وذا ناب فلم يرد أن يسترشدهم ليخبروه عن عوره وصحته ولكنه نبههم كأنه قال استقبلون أعور وذا ناب فالاستقبال في حال تنبيهه إياهم بأن واقعاً كما كان التلون والتنقل عندك ثابتين في الحال الأول وأراد أن يثبت لهم الأعور ليحذروه⁽⁴¹⁾)).

ويبدو أن سيبويه هنا أراد أن يظهر أن البنية التركيبية سليمة في إظهار هذه المقاصد الوظيفية بما يوفره سياق إنجلاها سواء أكان التركيب معتمداً على البنى الفعلية (ومنها المصتر) أو بنى اسمية كما في النص. وهذا السياق هو العنصر غير اللغوي الفاعل في فهم انجلاة ههنا ومن ثم إظهار المراد منها: استنكاراً أو تعجباً أو تحسراً، أو توبيخاً أو تطييراً وغير ذلك.

(39) كتاب سيبويه: ١/٨٠-٨١.

(40) كتاب سيبويه: ١/٣٣٨.

(41) كتاب سيبويه: ١/٣٤٣.

المحور الرابع

الفرضيات السياقية للخطاب (الخلف)

لا يخفى فيما تقدم أن سيبويه اقتصار المكان في بعد تحليلي آخر تفهم الكلام وهو ما أطلق عليه سيبويه نفسه (الحال)، وهو سياق واقعي للكلام لكننا وجدنا أن سيبويه في مواضع كثيرة يعمد إلى وضع سياق افتراضي يستوحيه من التركيب نفسه يعمل على تمتعه بوصفه ظرف الجملة الخارجي، ولما كان هذا السياق افتراضيا وهو يرتكز على مكونات الجملة وعلاقاتها فهو يمثل (المحتوى الدلالي للجملة). وهو كما يبدو محاولة من سيبويه للعودة بالجملة موضع التحليل إلى محيطها التداولي الذي ولدت فيه. ولا يبعد إفادة سيبويه والمؤلف مما يصاحب بعض التراكيب التي تجري على ألسنة الناس مجرى المثال، ليؤسسنا للتحليل السياقي في النحو العربي، وهي طريقة قريبة الشبه بالطريقة التفسيرية في فهم النصوص القرآنية بالاعتماد على أسباب نزولها. ومن ثم كان الانتقال من تفسير التراكيب التي تكررت معها مقاماتها إلى تفسير تراكيب افتقرت إلى سياقاتها، معتقدين في ذلك تشابه الأنماط وطبيعة العلاقات بين مكونات تلك التراكيب ودلالات ألفاظها.

إن التأطير التداولي الذي أسبغته سيبويه على الكلام لم يكن لمحة عابرة في منهجه النحوي بل إن تتبع الأمثلة والتراث في النظر إليها يبين أن طائفة من أبواب الكتاب تم صياغتها طبقا لوضعها المقاسي أو وظيفتها التداولية ومن أمثلة ذلك قوله: ((هذا باب ما يجري من الشتم مجرى التعظيم وما أشبهه: تقول أتاني زيد الفاسق الخبيث لم يرد أن يكرره ولا يعرفك شيئا تنكره ولكنه شتمه بذلك. وبلغنا أن بعضهم قرأ هذا الحرف نصبا ﴿وامرأته حمالة الحطب﴾ (المسند: ١)، لم يجعل الحمالة خيرا للمسراة، ولكنه كأنه قال: أذكر حمالة الحطب شتما لها، وإن كان فعلا لا يستعمل إظهاره. وقال عروة الصعاليك العيسى:

سقوني الخمر ثم تكفوني عداة الله من كذب وزور

إنما شتمهم بضميء قد استقر عند المخاطبين))^(١٢). فقد تحولت الأوصاف التي يعلمها الناس (معلومة مشتركة) إلى أن تكون مركبا للمعلومة المهمة وهي القصد (الشتم).

لقد أرسى سيبويه أسس تحليله لكلام العرب على مسوغات من توجيهات المتكلمين والمخاطبين وغائبين يمكن ملاحظتهم في الجملة وظلالها، فلكل أثر في الكلام. وأنماطه والوظائف المطلوبة يبرزها في الجملة، فالنحو عنده علم يتوجه إلى الكلام بوصفه تداوليا، وإن للألفاظ وعلاقاتها أثرا

(42) كتاب سيبويه ٧٠/٢.

وأصحا في الكشف عن سمات هذا التداول. ويبدو أن سيبويه قد تنبّه إلى الجانب الأساس من اللغة وهو الكلام ولم يغف عنه أن الكلام اتجاّز بؤميه المتكلم في إطار من المؤثرات الخارجية التي تتحكم بتوجهات المتكلم وتبعا لذلك تتحكم بالحدث اللغوي (الكلام)؛ وذلك بمحاولاته الدؤوبة لاستعادة السياقات التي ولدت فيها العملية الكلامية، وهي عناصر خارج الكلام ووحداته الصغرى أو الكبرى لكن الكلام يستطيع أن يخترن داخله تلك العناصر الخارجية. وقد استعملنا له (المحتوى الدلالي للجملة) ونعني به: كل سمة من سمات المعنى التي تستلحقها ألفاظها مفردة ومركبة، مع سياق مقامها الذي قبلت فيه وفقرتها على تزويد النحوي أو المتلقي بما يمكنه من استعادة الملابس التي اكتسفت ولادة الجملة⁽⁴³⁾.

ويبدو سيبويه على وعي كامل بأهمية هذا السياق الافتراضي في إعادة رسم صورة المقام الذي ولدت فيه الجملة لفهم ما طرأ على وحداتها من تغييرات نحوية لا تتضح لولا هذه الاستعادة أو الاستحضار. ولقد تمثّل وعي سيبويه في أرقى أمثلته أن يستعمل مصطلحا خاصا لهذا الجانب من فهم الكلام، وهو مصطلح (الخلف) ولأننا لم نجد أن هذا التوجّه السيبويي قد حظي عند الخلفين باهتمام بوازي أهميته وفاعليته في فهم النحو العربي. وكان سيبويه قد ذكر (الخلف) في موضعين من كتابه، مع مواضع أخرى طبق فيها سيبويه مفهوم مصطلحه.

تأصيل مصطلح الخلف:

ذكر للخلف معانٍ استعملها العرب وتعارفوا عليها منها الخلف ضد قدام، وهو خلفي أي ورائي ومنه الخلف الظهير، والخلف يخلّف غيره، وقال في العين: ((والخلف: من الصالحين، ولا يجوز أن يقال: من الأشرار خلف، ولا من الأخيار خلف))⁽⁴⁴⁾. وقيل غير ذلك وذكره البطليني في المثال⁽⁴⁵⁾. واستعمل سيبويه الخلف في مواضع من كتابه فخلّف من الظروف قال: ((...وأما خلف فيؤخر الشيء وأمام مقدمه وقدام بمنزلة أمام وفوق أعلى... وهذه الأسماء تكون ظروفًا))⁽⁴⁶⁾. كما استعمل (خلف) لما يخلّف غيره ويقوم مقامه ((وكان الاسم والله أعلم إليه فلما أدخل فيه الألف واللام حنفوا الألف وصارت الألف واللام خلفا منها فهذا أيضا مما يقويه أن يكون بمنزلة ما هو من نفس الحرف))⁽⁴⁷⁾. وقال أيضا: ((وإنما منطك أن تحمل الكلام على من آله خلف أن تقول: ما أتاني إلا من زيد، فلما كان

(43) ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه المنبحث الأول من الفصل الرابع: ١٤٠ وما بعدها.

(44) العين: ٢٦٦/٤.

(45) ينظر المثال: ٤٨٤/١.

(46) كتاب سيبويه: ٢٣٢/٤.

(47) كتاب سيبويه: ١٩٥/٢.

كذلك حمّله على الموضع فجعله بدلاً منه)) واستعمل خلف بمعنى المخالفة والكلام غير المستقيم⁽⁴⁸⁾، وقال: ((تري أنك تقول: ما أتاني من أحد لا عبد الله ولا زيد؛ من قبل أنه خلف أن تحمل المعرفة على من في ذا الموضع))⁽⁴⁹⁾

أما دلالاته على ما تقدم من تحليل الجملة وما يكون من متعلقات الجملة الخارجية فقد ضيقه المحقق بالضم (الخلف) في الموضعين اللذين استعمل قيهما.

الموضع الأول: قوله: ((وتقول: إني عبد الله؛ متصغراً نفسه لربه، ثم تفسر حال العبيد فتقول: أكلاً كما تأكل العبيد، وإذا ذكرت شيئاً من هذه الأسماء التي هي علامة للمضمر فإنه محال أن يظهر بعدها الاسم إذا كنت تخبر عن عمل، أو صفة غير عمل، ولا تريد أن تعرفه بأنه زيد أو عمرو، وكذلك إذا لم تُوعِد ولم تُفخر أو تصغر نفسك؛ لأنك في هذه الأحوال تعرف ما ترى أنه قد جهل، أو تُزِلُّ المخاطب منزلة من يجهل فخراً أو تهدياً أو وعيداً، فصار هذا كتعريفك إياه باسمه. وإنما ذكر الخليل - رحمه الله - هذا لتعرف ما يحال منه وما يحسن؛ فإن النحويين مما يتهاونون بالخلف إذا عرفوا الإعراب. وذلك لأن رجلاً من إخوانك ومعرفتك لو أراد أن يخبرك عن نفسه أو عن غيره بأمر فقال: أنا عبد الله منطلقاً، وهو زيد منطلقاً، كان محالاً؛ لأنه إنما أراد أن يخبرك بالاتطالع ولم يقل هو، ولا أنا حتى استغيت أنت عن التسمية، لأنّ هو وأنا علامتان للمضمر، وإنما يضمن إذا غم أنك قد عرفت من يعني؛ إلا أن رجلاً لو كان خلف خاطئ، أو في موضع تجهله فيه فقلت: من أنت؟ فقال: أنا عبد الله منطلقاً في حاجتك كان حسناً))⁽⁵⁰⁾.

فالجملة: أنا عبد الله، أكلاً كما تأكل العبيد، جملة غير مقبولة لأنه لا يريد أن يكون عبد الله خبراً للمضمر؛ إذ لا يستعمل الضمير إلا بعد معرفة السعي به؛ لكن سيبويه يلقي إلى جهتين لتصحيح الجملة: أولهما اعتماد على ما تعارف عليه الناس، فلفظة عبد الله ليست خالصة في الاسم، فما تزال دلالتها على صفة العبودية له قائمة في تداول الناس؛ فكأنه أراد تصغير نفسه أو نحو ذلك، والجهة الثانية جهة اشتراك المتكلم مع المخاطب في المكان فعدم تمكن المخاطب من رؤية المتكلم، كان له الأثر في صحة الجملة، فافترض أن المتكلم لو كان خلف جدار لصح أن يقول أنا عبد الله وإن لم يرد أن يخبر أنه عبد الله، بل ليخبر أنه منطلق في حاجة أو نحو ذلك، فتسبب الجملة مكانياً واجتماعياً هو من جملة ما تفرّد به الخليل وسيبويه في تحليلهم لكلام العرب؛ وأن لدرسهما النحوي خصوصية لم

(48) كتاب سيبويه: 2/215.

(49) كتاب سيبويه: 2/317.

(50) كتاب سيبويه: 2/80-81.

يشركهما فيه أحد. كما يتضح أن سيبويه استعمل الخلف للدلالة على كل ما يمكن أن يكون من مواقف غير لغوية لها علاقة مباشرة بتكوين الجملة على هيئة خاصة وهذه الهيئة لها أثر واضح في عملية استعادة تلك المواقف وإعادة عرضها بوصفها سياقاً افتراضياً. ما يؤكد الصيغة الإنجازية للجملة، وأن على النحوي أن يفهم كل جملة في ظل ظروفها الخاصة التي ولدتها. وأن لكل منها مواقع تتدخل ما بين المتكلم والمخاطب والبيئة المتعلقة بهما، تتحملها تلك الجملة ووظيفة النحوي الكشف عن تلك العلاقات التي لها مسيس علاقة بانجاز الكلام.

الموضع الثاني الذي استعمل سيبويه فيه الخلف قوله: ((ومن ذلك أيضاً أن ترى رجلاً قد أوقع امرأ أو تعرض له فتقول متعرضاً لعن لم يعنه أي دنا من هذا الأمر متعرضاً لعن لم يعنه وترك ذكر الفعل لما يرى من الحال ومثله بيع المنطى لا عهد ولا عقد وذلك إن كنت في حال مساومة وحال بيع فتدع أبابك استغناء لما فيه من الحال ومثله (مواعيد عرقوب أخاه بيثرب) كانه قال: وأعدتني مواعيد عرقوب أخاه ولكنه ترك وأعدتني استغناء بما هو فيه من ذكر الخلف واكتفاء بعلم من يعنى بما كان بينهما قبل ذلك))⁽⁵¹⁾.

لتصور وقوع الجملة في سياق الحال "بجعل التركيب ذا فائدة، وفرد أن محاولة سيبويه في هذا الجانب أدت إلى استثناء البنية الدلالية للجملة. وقد نص سيبويه هنا على ذكر (الحال) وهو الموقف بكل جوانبه ذات الصلة بالممارس اللغوية. واستعمله قريباً من المصطلح اللساني لـ (سياق الحال Context of situation) على أننا نتميز بهذا بين ما ذكره سيبويه في أغلب تحليلاته أنه سياق افتراضي لا حقيقي كما في سياق المقام، وقد وهم كثير من الباحثين⁽⁵²⁾ في عد ما جاء به سيبويه بوصفه سياق حال وما هو إلا المحتوى الدلالي للجملة أو (الخلف) بمصطلح سيبويه.

إن النحو عند سيبويه في ظل هذا التوجه نحو فهم الجملة هو نحو أداء والجزء، ونحو حدث يقع في عملية تخاطب، وليس النحو مختصراً على كونه نحو تعلق وبناء وتركيب، أو نحو أصول وقواعد. ولقد عمد سيبويه هنا إلى توثيق مأخذه على نحوي عصره الذين - على ما يبدو - انصب جهدهم على معرفة الإعراب، وهو المظهر الشكلي للكلام. على حين صوّر هذا التوجه الوظيفي عند سيبويه غير تعلقه بعناصر من خارج الجملة ضرورة منهجية في تكامل فهم الجملة وتكامل مجالات تحليلها. وقد كان ظهوره فعلاً في طائفة من التركيبات المتداولة التي اشتملت على نفس ما في بدائها من نحو:

(51) كتاب سيبويه: ٢٧٢/١.

(52) ينظر: نظرية النحو العرض في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث: و دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه.

القرطاس والله، وحديثك، وغيرها. ولقد أتاح هذا الموضوع فرصة تحليلية لإشراك البيئة البصرية عبر مظاهر متعددة استوحاها سيبويه منها.

وهو موضوع يكشف لنا أن اندرس اللساني في الكتاب يختلف عما عند بقية العلماء فقد كان جديداً كل الجدة، ومثل مرحلة النظر العميق للجملة، وكما نضج بسرعة. فقد أفل نجمه بسرعة إذ كتبت الغلبة للذين كان جلّ عنهم معرفة الإعراب وتغليب الأقيسة.

لقد ((خط الخليل وسيبويه لنحو العربي ما نذهب إلى أنه رؤية جديدة في فهم الجملة وتحولاتها تمثلت في طائفة النصوص التي تتم دراسة الظاهرة النحوية على وفق ما يمكن أن تحيل إليه من اعتبارات المكان والزمان وطرفي عملية التخاطب (المتكلم والمخاطب) اللذين غالباً ما يتخذان وظيفتي (المائل والمجيب)، وهي الاعتبارات التي يتبناها الوظيفيون المعاصرون))^(٥٣).

وكان بعض الباحثين قد توقف عند ما جاء به سيبويه في هذا المجال، ثم قال: ((ولأسف ثم أجد من شراح الكتاب ولا ممن جاء بعده من توقف عند هذا المفهوم، فقد ظل نسياً منسياً وهذا لعسري إجحاف لي حق الرجل الذي نصب أعلام النحو، وما قيل عن القدامى يقال عن المحدثين لا فرق في (التقصير))^(٥٤) ومع اتفاقنا مع الباحث في تأنيده أتوء إلى أنني عبر فرصة أتحت لي لتأمل والنظر ملياً في كتاب سيبويه كنت أول من عمل على إبراز مفهوم سيبويه للخلف (على حد اطلاعي وبالنظر إلى ما ذكره الباحث في قوله (ألف الذكر) بوصفه جزءاً من المجال الرابع من مجالات التحليل النحوي عند سيبويه وهو مجال المحتوى الدلالي للجملة)^(٥٥).

(53) مفهوم الجملة عند سيبويه: ٢٠٦.

(54) البعد التداولي عند سيبويه: ٢٥٦.

(55) كان ذلك عند إجمادي للكتّوراء، كان عنوان الأطروحة: مفهوم الجملة عند سيبويه، ومجالات التحليل النحوي لمفهوم الجملة العربية عند سيبويه.

١ - مجال الأصناف (المقولات) Categories: وهو المجال الذي يتم فيه تصنيف المفردات الرئيسة والفرعية. ويمثل هذا المجال البنية الأولى للمعجم وأهمية هذا المجال تكمن في أنه يقدم السمات المميزة للصنف أو للمفردة التي تلتزم فيه سواء أكانت هذه السمات بذاتية أم دلالية.

٢ - مجال العمل Government: وهو مجال تربط بين الأصناف لتكوين نسق الكلام، ويعمل على الإفادة من السمات الخاصة بكل صنف في تمثيل البنية الدلالية للجملة.

٣ - مجال البنية Structure: البنية هي النسق البنائي الذي تتخذ المفردات (الوظائف) داخل الجملة ومن أبرز نتائجه تقديم بنية افتراضية الاصل للجملة في العربية.

ونرى أن لا نقصر هذا التأسف على هذا الجانب من التحليل النحوي في الكتاب بل يمتد إلى منا نراء طمنا للنظرية النحوية في الكتاب، واعتقد أن ذلك نشأ من عدم القدرة على استيعاب ما ألقى به سيبويه من طرائق تحليل الكلام، ثم الميل نحو أسلوب تعليمي مبسط ينشده المعلمون لطلابهم بل أخذوا يجزئون من الكتاب على موضع الحاجة.

ومن أماكن الاختيار المؤدية لظهور الإضمار قول سيبويه: ((هذا باب ما يضر فيه الفصل المستعمل إظهار في غير الأمر والنهي، وذلك قولك: إذا رأيت رجلاً متوجهاً وجهة الحاج قاصداً في هيئة الحاج، فقلت: مكة ورب الكعبة؛ حيث زكنت أنه يريد مكة، كأنك قلت: يريد مكة والله. ويجوز أن تقول: مكة والله، على قولك: أراد مكة والله، كأنك أخبرت بهذه الصفة عنه أنه كان فيها أمسي، فقلت: مكة والله، أي أراد مكة (إذ ذلك))^(٤٦) فالتركيب: مكة ورب الكعبة جملة محوطة وكان اختزال الفعل فيها لإمكانية هذا التركيب من الإحالة إلى موقف واضح أدرك المتكلم أن المخاطب مدرك له بقوله: ((حيث زكنت أنه يريد مكة...)).

ويقول سيبويه بعد النص السابق: ((ولو رأيت ناساً ينظرون الهلال وأنت منهم بعيد فكبروا فقلت: الهلال ورب الكعبة؛ أي أبصروا الهلال، أو رأيت ضرباً فقلت على وجه التقاؤل: عبيد الله، أي يقع بعيد الله أو بعيد الله يكون، ومثل ذلك أن ترى رجلاً يريد أن يوقع فعلاً، أو رأيته في حال رجل قد أوقع فعلاً، أو أخبرت عنه بفعل فتقول: زيداً، تريد: اضرب زيداً أو أتضرب زيداً؟))^(٤٧) فكان سيبويه يقدم لنا مشهداً مسرحياً يظهر فيه جماعة يترقبون الهلال وبعيداً عنهم يقف المتكلم وهو مطلق على أمرهم، فإذا كبروا عرف المتكلم أنهم قد أبصروا الهلال لأن التكبير في مثل هذا المقام يعني رؤية الهلال. ويتخذ المخاطب موقفاً قريباً من المتكلم ناظراً إلى الجماعة غير عالم بخبرهم فإذا قال

٤- مجال المحتوى الدلالي: مجال فهم الجملة وإدراكها وبعد تركيب ما صحيحاً إذا كان باستطاعة المخاطب إدراك محتواها الدلالي (الوالمي والمفروض)؛ والمحتوى الدلالي هو معنى الجملة مقترناً بالمقام والسياق اللغوي، والبحث فيه يتجه نحو الناحية الوظيفية (الدلالية)، وبيان أثر المتكلم والمخاطب في امتداد الجملة وانتيانها بالمكوث.

٥- المجال القبلي (الأصل): karnai: تكرر هنا مسألة الأصل والفرع إذ أكل مظهر خلافي أصل سابق عليه، سواء على مستوى المفردات أم تركيبات. ونظهر في هذا المجال البنى الافتراضية (البنية الأصل والبنية المعققة) للجملة، والتحولات التي تطرأ على البنى السطحية والمنطوق من الكلام. ينظر: مفهوم الجملة عند سيبويه، الخاتمة: ٢٧٨-٢٨٢.

(56) كتاب سيبويه: ١/ ٢٥٧.

(57) كتاب سيبويه: ١/ ٢٥٧.

المتكلم:الاهلال؛ فهم منه المخاطب أن الجماعة قد أبصرت الهلال.وكذلك الحال في البقية فالمحتوى الدلالي الذي يقدم سيبويه ههنا يتضمن حقائق خارجية هي:

الجماعة المنترقية لولادة الهلال.

المتكلم وموقعه البعيد عن الجماعة.

معرفة للمتكلم الضمنية بما اجتمعوا لأجله.

العادات الاجتماعية تفرض سيطرتها على السلوك اللغوي.(فكبروا...)

المخاطب وموقعه من المتكلم.

رؤية المخاطب أو معرفته بوجود الجماعة.

عدم معرفة المخاطب بسبب اجتماعهم.

سماع المخاطب تكبير الجماعة... وهكذا.

وقد عبر د.نهاد الموسى عن هذا المحلى عند سيبويه بقوله: ((وهذه آيات دالة على أن سيبويه أدرك ما يكون من انعدام اللغة في نظامها الداخلي الخاص، بالحياة في مجالها الخارجي العام))^(٩٠).

وكان د.نهاد الموسى قد أطلق على هذا الجانب من التحليل (البعد الخارجي في التحليل النحوي عند سيبويه)^(٩١). ومن الممكن إضافة بعض الاحتمالات لهذا المشهد السياقي الذي يفترضه سيبويه في القول بدلالة الكلمة الواحدة (زيداً ونحوها) على جملة ثامة حذف فعلياً لدلالة الحال عليه وعلم المتكلم بأن المخاطب يشاركه في تبني مجموعة من التوافقات الخطابية مما يمكن هذه في إطار (عبداً التعاون) الذي قال به غرايس.

من الظواهر الواضحة في الجملة العربية أن يتم الاستغناء عن بعض مكوناتها لما يسوقه بناء الجملة المتحققة للمستمع من ملاحظة ما استغني عنه. وقد جرى مثل ذلك في طائفة من التركيب اختزل فيها الفعل (كما عبر سيبويه) على نحو الاختيار لا الإلزام من نحو قوله: ((هذا باب ما جرى من الأمر والنهي على إضمار الفعل المستعمل إظهاره، إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بفعل. وذلك قولك: زيداً، وعمراً، وأسنه. وذلك أنك رأيت رجلاً يضرباً أو يشتم أو يقتل، فاكتفيت بما هو فيه من عمله أن تلفظ له بعمله فقلت: زيداً، أي: أوقع عملك يزيد. أو رأيت رجلاً يقول: أضرباً شراً الناس فقلت: زيداً، أو رأيت رجلاً يحدث حديثاً فقطعه فقلت: حديثك، أو قدم رجل من سفر فقلت: حديثك، استغنيت عن الفعل بعلمه أنه مستخير، فعلى هذا يجوز هذا وما أشبهه. وأما النهي فإتته التحذير، كقولك: الأسد الأسد، والجدار الجدار، والصبي الصبي؛ وإنما نهيته أن يقرب الجدار المخوف أتمثال،

(58) نظرية النحو العربي: ٩٠.

(59) ينظر: نظرية النحو العربي: ٨٨.

أو يقرب الأسد أو يوطئ الصبي...)»^(١٠). وهو ما نفهمه من قول سيبويه فيما سبق بقوله: ((إذا علمت أن الرجل مستغن عن لفظك بالفعل)). وكذلك قوله: ((...يعلم أنه مستخبر...)). فيكثُر حال من تخاطبه إذ يجب لتحقيق القصد من الكلام أن يفهم المقال ما تحاول أن توصله إليه وإلا استحال الأمر.

ثم إن الذي تريد إيصاله ربما يتجاوز كثيرا ما تلفظ به؛ وذلك ما أبان سيبويه عنه في الفعل المحذوف، وكذلك فيما تقدم من دلالة الحال على وجود الاسم الموصوف بها. ومن الواضح أن سيبويه يرى أن هذه الكلم جمل نامة لأن بقاءها الظاهر يتضمن محتوى دلاليًا مثلما تتضمنه الجمل النامة البناء. ويظهر المحتوى الدلالي متضمنًا موقفًا هو عبارة عن طائفة من الأحداث يقوم بها الطرف الأول (الذي ومسمع من الطرف الثاني الذي سيتخذ وظيفة الأمر أو المستخبر أو المحذّر للطرف الأول) الذي سيكون المخاطب). فللكشف عن المحتوى الدلالي يجب رسم صورة للبيئة التي أنتجت الجملة بكل أطرافها.

فالتنص يبين كيف يتم الانسياق مع مبدأ التعاون المنظم ذكره إذ يقتزن بأثار خارجية متوجهة نحو الحواس والإثراك فالحال أو الموقف والمعرفة السابقة سمحا بهذا المبدأ الاختياري في اختزال العنصر المؤكّد والأساسي في الجمل مع بقاء هيئتهما في إنشاء الجمل: وربط مكوناتها بعضا ببعض.

كما تجب هنا ملاحظة الأثر الوظيفي الذي تلبس العنكف والمخاطب فيصبحان سائلا ومسجوبا كما في طائفة من الجمل المحولة التي اشتملت على نقص تركيبى عن نسطها الأساس؛ فمما لا يجوز فيه الأزواج الوظيفي أن توضع الصفة في موضع الاسم إلا في مواضع معينة ولليرادة على ذلك يعتمد سيبويه إلى ملاحظة المستوى الدلالي للجملة فهو يقول: ((وما بين لك أن الصفة لا يقوى فيها إلا هذا أن سائلا لو سألك فقال: هل سير عليه؟ لقلت: نعم؛ سير عليه شديداً، وسير عليه حسناً. فالنصب في هذا على أنه حال. وهو وجه الكلام؛ لأنه وصف للمسير، ولا يكون فيه الرفع لأنه لا يقع موقع ما كان اسماً، ولم يكن ظرفاً لأنه ليس بحين يقع فيه الأمر))^(١١).

إن الصورة الظاهرة للجملة هي التي تقرر محتواها الدلالي ومن ثم السياق الذي يمكن أن ترد فيه. فوجوب التنصب للوصف وعدم جواز رفعه مكن سيبويه أن يقدم محتواها الدلالي على وفق سؤال وجواب. ومن ثم فإن سيبويه يضع في اعتباره أن المنطوق هو الذي يكشف عن المحذوف ويكشف عن البنية الأولى التي صيغت عليها الجملة، ولذا فإن المنطوق يتبادل الأثر مع سياقه في طبيعة تكوينه.

(50) كتاب سيبويه ١٢/ ٢٥٣.

(61) كتاب سيبويه ١٠/ ٢٢٨.

والتحويلات التي تعريه. ومن هذا يمكن القول أن عملية التحويل عن الأصل هي عملية تركيبية. وأنها تعطل التركيب حسب وليس هناك بنية دلالية محولة، بل هي بنية واحدة تمتلك أكثر من تركيب لمثلها.

نتائج البحث:

١- المكان هو البيئة الذي يحيط بالكلام إنتاجاً ونظراً ولقد فُطر الاتجاه التداولي المعاصر إلى الكلام بوصفه انجازاً تتوارد فيه آثار متعددة من خارج اللغة فتكتنزها جمته ودلالات مفرداته. وزدنا على هذا القول أن جزءاً من تلك التداولية تكمن في عائم اللغة نفسه فهو لم يكن بمنأى عن التأثير بالبيئة المحيطة وحالته في ذلك، كحال المنكلم، فسيعمد بوعي أو بغيره إلى اكتناز عناصر المكان والزمان والعيول الاجتماعية المعاشة في مهم مكونات درسه اللغوي، وسحاورة ومنهج معالجة لغته. فلا يقصر النظر التداولي على مكونات اللغة ذاتها؛ بل يضاف عليها الطرائق المنبئة لفهمها.

٢- من هنا رجح الباحث أن سيبويه كان قد وضع لمؤلفه اسماً هو كتاب سيبويه أو الكتاب. على عادة معروفة عند العرب في إنتاج توليفاتها وذكر أيامها، ولعل سيبويه قدم لنا في كتابه ما بقيت في هذا المجال، وهو نص منه على هذا النزوع، مع إدراجة لاسمه (عمرو) في هذا النص.

٣- كما يرجح لدى الباحث أن سيبويه قدم بعض ما يوصل عريته الحضرية والاجتماعية بإنكاره أن عمرويه قد لحفته لاحقة أعجمية. وأنه كان ربيب عشق تاريخي لعائلة يدار من اسمه وتسبه، كما أن انتماء سيبويه لمجتمعه مثل أعلى مراحل بنظرته إلى اللغة العربية بوصفها لغة خطاب.

٤- كان الملصق الاجتماعي وأثره في الدرس النحوي في الكتاب يلج على أخذ التوجيه النحوي في محاور كثيرة نحو اعتبارات اجتماعية أو مظاهر تلك الحياة ليتم نه صياغة أفكاره على تلك المحاور.

٥- وعلى هذا فقد سار سيبويه على محورين رئيسين لتحليل كلام العرب في ظل من أسأله الفراهيدي والمحورين هما:

أ- محور افتراضى قبلي يهتم بالتركيب والعلاقات القائمة بين مكونات التركيب الواحد، بغض النظر عن المعنى.

ب- المحور ادلالي-التداولي، فالكلام نواصل وأخبار وتبادل للمعلومات وهو المحور الذي استتم البحث برصد بعض مظاهرها التي تؤكد الوعي السيبويهي في هذا المجال، وهو ناحية مهمة افتقدها الدرس النحوي العربي بعد الخليل وسيبويه كما لم تكن من همه قبلهما. ولقد قدم فيه سيبويه افتراضاً سياقياً سمّاه الخلف للدلالة على تلك الملايسات الخارجية التي تحيط بعملية التواصل (المنكلم والمخاطب أو المتلقي والظرف المكاني والزمني الذي أنجز فيه الكلام. مع اعتبارات اجتماعية

باقدم باحثينا نضع الحياة ١٣. ١٤ نيسان ٢٠١٢

متعددة تخصص كل تلك المتعلقة). ولقد كان هذا التحليل مهيئاً عند سيبويه ولا نيسالغ ذا قلنا إن المحور العقلي الأنف الذكر هو نتيجة لهذا المحور. ولقد استوحى سيبويه من الإنية الدلالية للجملة، وأثرها التداولي بنيتها التركيبية اقبلية، وعلى ذلك فالمستوى اللغوي للجملة هو مستوى تركيبى مجرد، يجري تحويله في مراحل التحويل بما يخدم الدلالة المرادة والعملية التواصلية.

ثبت المظان:

١- أسلوب النداء دراسة لغوية صوتية، د. طارق الجنابي، (ضمن كتاب أبحاث عربية في انكشاف التكريري المستشرق الألماني فولفديترش فيسبر، إعداد وإصدار: د. هاشم اسماعيل الأيوبي، ط١، ١٩٩٤).

٢- الاقتضاء في التداول اللساني، د. عمر فاخوري، عالم الفكر، مج ٢٠، ٣٤: ١٩٨٩.

٣- الإيضاح في علل النحو، أبو القاسم الزجاجي (٣٣٧هـ)، تح: د. مازن المبارك، دار الفاضل، مؤسسة مطابع معشوق، بيروت، ط ٢، ١٣٩٣هـ - ١٩٧٣م.

٤- البعد التداولي عند سيبويه، مقبول إدريس، عالم الفكر، ع ٣٣٤، ٢٠٠٤م.

٥- التحليل في الذرر النظرية (نظرة في أصول اللغة)، مجلة جامعة كربلاء، المجلد ٧، ٨، ٢٠٠٩.

٦- تكوين الجمل وامتدادها عند سيبويه في ضوء منهجه التفسيري للنحو، مجلة ثقافتنا، دائرة العلاقات الثقافية، وزارة الثقافة العراقية، العدد ٥٥، ٢٠٠٧-٢٠٠٨.

٧- كتاب الجمرة اللغة، لأبي بكر محمد بن الحسن بن دريد (٣٢١هـ)، تح: د. منير عطيكسي، دار العلم للملايين، بيروت، ط ١، ١٩٨٧م.

٨- دور السياق في منهج التحليل النحوي عند سيبويه، موسى إبراهيم موسى حسن الشلقاوي، رسالة ماجستير مقدمة الى كلية الدراسات العليا، الجامعة الأردنية، ١٤١١هـ - ١٩٩١م.

٩- سيبويه إمام الفحاة، علي الخدي ناصف، مكتبة النهضة، مطبعة لجنة البيان العربي، مصر، ١٣٧٢هـ - ١٩٥٣م.

١٠- سيبويه: حياته وكتابه، د. حديجة الحديثي، منشورات وزارة الإعلام، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.

١١- فتوح البلدان، البلاذري مطبعة لجنة البيان العربي، القاهرة.

١٢- الجمل في النحو، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٧٠هـ)، المحقق: د. فخر الدين قباوة، ط ١، ١٤١٦هـ - ١٩٩٥م.

١٣- العين، أبو عبد الرحمن الخليل بن أحمد الفراهيدي (١٠٠-١٧٥هـ)، تح: د. سبهي المعزومي و د. إبراهيم السامرائي، دائرة الشؤون الثقافية العامة، دار الحرية للطباعة، ط ٢، ١٤٠٤هـ - ١٩٨٤.

- ١٤- كتاب سيبويه وبلية تحصيل عين الذهب في علم مجازات العرب لمؤلفه يوسف بن قيس الشنتمري، منشورات الأعلمي للمطبوعات، بيروت، ١٤١٠هـ - ١٩٩٠م.
- ١٥- كتاب سيبويه، أبو بشير عمرو بن عثمان بن سيبويه، المطبعة الكبرى الأميرية ببولاق، مصر، ط١، ١٣١٦هـ.
- ١٦- كتاب سيبويه، محمد علي التجار، الهيئة المصرية العامة للكتاب، ١٩٩٥.
- ١٧- الكتاب-كتاب سيبويه، أبو بشر عمرو بن عثمان بن قنبر (ت١٨٥هـ)، تح: عبد السلام مصطفى هارون، عالم الكتب للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت (د.ت)، وهي النسخة المعتمدة.
- ١٨- لسان العرب، ابن منظور جمال الدين محمد بن مكرم الأنصاري (٧١١هـ)، مطبوعة عن مطبعة بولاق، الدار المصرية للتأليف والنشر والترجمة، مطبعة كوستانتوماس وشركاه.
- ١٩- اللغة والمعنى والسياق، جون لايفز، ت.د.د. عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ط١، ١٩٨٧.
- ٢٠- الخطب، ابن السيد البطليوسي (٤٤٤هـ - ٥٢١هـ)، تح: د.صلاح مهدي الفرضي، دار الرشيد للنشر، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٤٠١هـ - ١٩٨١م.
- ٢١- مراجعات لسانية مقالة لنحويين الرواة، حمزة بن قيس المزيبي، كتاب الرياض، ج ٢، مراجعات لسانية (١٤٦٠هـ).
- ٢٢- المرجعية النحوية في النظرية التداولية، د. عبد الحليم بن عيسى، مجلة دراسات أدبية، الحر، ج ١، ٢٠٠٨.
- ٢٣- المفهوم التكويني لنظرية العامل النحوي عند سيبويه، تحليل وتوجيه، د. غالب الخطيب، د. حسن عبدالغني الأسدي، مجلة المورد العراقية، ج ٣، ١٩٩٩ م.
- ٢٤- مفهوم الجملة عند سيبويه، د. حسن عبد الغني الأسدي، نشر دار الكتب العلمية، بيروت، ط١، ١٤٢٨هـ - ٢٠٠٧م.
- ٢٥- من أعلام البصرة سيبويه هوامش وملاحظات حول سيرته وكتابه، د. صاحب جعفر أبو جراح، منشورات وزارة الإعلام العراقية، دار الحرية للطباعة، بغداد، ١٣٩٤هـ - ١٩٧٤م.
- ٢٦- منهج كتاب سيبويه في التقويم النحوي، د. محمد كاظم البكاء، مطابع دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، ط١، ١٩٨٩م.
- ٢٧- نظرية النحو العربي في ضوء مناهج النظر اللغوي الحديث، د. نهاد الموسى، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، ط١، ١٤٠٠هـ - ١٩٨٠م.
- ٢٨- الانتماء في التداول اللساني، د. عمر فاخوري، عالم الفكر، مج ٢، ٣٥، ١٩٨٩.